

( كلنا شركاء ) : 2007/11/11

رحلة شخصية إلى حلب و بلاد الشام و الجمهورية العربية السورية  
محاضرة بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة للقنصلية الهولندية في حلب، 31 تشرين الأول  
2007  
يلقيها الدكتور نيقولاوس فان دام ( 1 )

أصدقائي السوريون الأعزاء و أصدقاء سورية  
حضرات الضيوف الكرام  
السيدات و السادة

**فصلت حلب عن أرضها المحيطة بها**

منذ حوالي 400 سنة مضت و عندما تم رسمياً تعيين أول قنصل لهولندا في حلب، بدأنا عندها العلاقات الثنائية التي نحتفل بها اليوم. و لكن لن أقوم اليوم بتناول التاريخ المعقد لهذه العلاقة القديمة التي امتدت لقرون كما تم تناولها بشكل شامل في الكتاب الممتع و المنتج بشكل جميل و الذي تم نشره بهذه المناسبة، من قبل قنصل هولندا في حلب الثامن و الثلاثين، السيد حسين المدرس بالتعاون مع السيد أوليفييه سالمون. (2)  
سيكون تركيزي اليوم على الزمن الحديث.

لا يمكن أن تكون الرحلة من أمستردام إلى حلب سهلة في ذلك الوقت، و ذلك ليس فقط بسبب وسائل التنقل الصعبة و الأخطار السائدة و في بعض الأحيان الظروف الخطيرة. و لكن الجانب الايجابي أنه خلال عهد الإمبراطورية العثمانية كان يجب عبور حدود دولية و سياسية أقل مما هي عليه الآن و التي تعوق طرقنا هذه الأيام.  
كان موقع مدينة حلب الاجتماعي-الاقتصادي مختلفاً حينذاك، على الرغم من أنه جغرافياً ما يزال نفسه. لم تكن حلب مفصولة بعد عن ما يسمى أرضها الخلفية الطبيعية كما هي اليوم، و ذلك بسبب الحدود الناتجة من الحرب العالمية الأولى و الاندابين الفرنسي و البريطاني اللاحقين لها.

تم وصف سورية في الأدب العربي القومي على أنها بلد فصل عن أرضه الخلفية، و بذلك أصبح ك جسم عديم الأطراف. و تعد حلب مثالا واضحاً على هذه الظاهرة. إن كل من ينظر إلى الخريطة السياسية لسورية في يومنا الحاضر يعتبرها بيئة بذاتها على وجود علاقات مكثفة بين حلب و دمشق على كل من الصعيد الاجتماعي و مجال التجارة و الاقتصاد. و لكن عند النظر إلى خرائط أقدم يتبين أن طرق التجارة كانت مختلفة تماماً و كنتيجة فان العلاقات، و على سبيل المثال، بين حلب و الموصل كانت مكثفة أكثر من العلاقات بين حلب و دمشق. و كانت مدن كماردين و عينتاب و حران، متجاوزين ذكر الاسكندرون، و التي هي الآن كلها ضمن تركيا، ما تزال جزءاً من الشبكة الطبيعية لحلب.

**البدء بـ "حياة سورية"**

بدأت منذ حوالي أربعين عاماً بنوع من الحياة الثانية و التي أحب أن أدعوها "حياتي السورية". بدأ كل شيء من خلال رحلتي الأولى إلى الجمهورية العربية السورية، إلى مدينة حلب و ريفها. و كان ذلك في الأسواق التقليدية الجميلة لحلب عام 1964 عندما قام طالب سوري من قرية ريفية مجاورة بدعوتي للإقامة عنده لليلة تحت السماء الصيفية المفتوحة بجانب منزله المصنوع من القرميد الطيني و الذي يشبه خلية النحل. كان الجو حاراً جداً تحت هذه القبة القرميدية لكي تنام مرتاحاً، لكنه كان نوعاً آخر من الراحة تعودت عليه فيما بعد. و استمتعت في هذه القرية الريفية الصغيرة و للمرة الأولى بالاستضافة العربية الكبيرة للعائلة السورية. بدأ الأمر و كأنه ولادة لمرة ثانية و لكن الآن في بلد جديد و ثقافة أخرى و عائلة جديدة.

إن هذا اللقاء الأول مع سورية و الذي كان جميلاً و مثيراً على الصعيد الشخصي، أصبح ذا تأثير كبير لما تبقى من حياتي و ذلك فكرياً و عاطفياً و لم أفقد منذ ذلك الحين اهتمامي بهذا البلد الجميل. بل على العكس فقد تعزز اهتمامي و توقي لمعرفة سورية أكثر و بشكل حميم أكثر بمرور الوقت.

و لا يمكنني أن أتجنب ذكر أن العكس ممكن الحصول. فقط تخيل التمر الذي تتعرض له من قبل سلطات الهجرة عندما تدخل بلداً ما للمرة الأولى. و هذا يترك أثراً سلبياً من الصعب محوه فيما بعد. لا أتذكر أن شرطة الحدود السورية كانت وديةً معي كثيراً في ذلك الوقت (فبعض منهم كان في ثياب النوم أو ذهبوا إلى فراشهم عندما وصلت متأخراً في الليل)، و لكن ما حدث معي عند تقاطع باب الهوى - و هو أمر لن أنساه أبداً- أنه في صباح اليوم التالي قام أحد السوريين اللطيفين بإعادة محفظتي التي أضعتها على ما يبدو الليلة السابقة، فقد وقعت على الأرض عندما كنت نائماً على مقعد خشبي صلب أنتظر بصبر الحدود لكي تفتح. و حيث أن المحفظة كانت تحوي على كل أشيائي المهمة و التي بدونها سيكون دخول سورية أمراً صعباً على أية حال، فقد كان بالفعل هذا الهبوط للمرة الأولى في الأرض العربية لطيفاً و ساراً.

و بالرغم من أنني أمضيت معظم حياتي الأكاديمية أتناول سورية و زرتها في العديد من المناسبات و أيضاً مع وفود وزارية هولندية متعددة، إلا أنني لم أتشرف أبداً بأن أكون دبلوماسياً معتمدا لدى الجمهورية العربية السورية، و هذا بالرغم من أنني أعلنت عن رغبتي الشخصية القوية بذلك لقسم الموظفين منذ بدئي بالعمل مع وزارة الشؤون الخارجية في لاهاي.

و لكن لا يوجد شيء اشتكي منه فقد خدمت في كل البلدان المجاورة لسورية بما فيها كل أراضي الهلال الخصيب المتصلة بها، و هذا يعني أنني خدمت في جزء أساسي في ما يدعى عادةً بلاد الشام، أي في لبنان و الأردن و فلسطين و حتى في لواء الاسكندرون عندما خدمت في تركيا. و لكن من الجيد بعد كل هذا أن بعض الرغبات تبقى غير محققة فتسعى إليها بشكل أكبر

### حدود الدولة و الحدود العرقية

كانت رحلتي الأولى إلى سورية عن طريق البر من أمستردام إلى حلب عام 1964 بالتأكيد أكثر قصراً و إراحة عما كانت عليه أيام القناصل الهولنديين و التجار الأولين منذ أكثر من أربعة قرون. سافرت بالقطار من أمستردام إلى اسطنبول بما اعتادوا على تسميته بـ أورينت اكسبرس، و من هناك تابعت طريقي بباص تركي إلى الاسكندرون . و قد تعرفت في مدينة الميناء المتوسطية هذه على حقيقة أن حدود الدولة لا تتوافق دائماً مع الحدود العرقية. و قد تفاجأت بسرور عند سماعي لأول مرة أشخاصاً يتحدثون اللغة العربية. و قد لاحظت مع بعض الإثارة أن هذا قد حدث قبل عبوري الحدود السورية-التركية الدولية عند باب الهوى.

و على الرغم من أن الأشخاص الذين يتحدثون اللغة العربية و الذين قابلتهم في الاسكندرون مقيمون رسمياً في الجمهورية التركية، إلا أنني اعتبرهم عرباً بسبب لغتهم الأم. و لكن يتم تصنيفهم في تركيا، و حسب تقاليد الكماليين، على أنهم "أتراك"، حيث أن أية إشارة للعرقية كانت مرفوضة في تلك الأيام. و لكن مؤخراً فقط أصبح مقبولاً رسمياً في تركيا الإشارة، و على سبيل المثال، إلى "أتراك من أصل عربي"، و "أتراك من أصل كردي"، و "أتراك من أصل أرمني" و هكذا دواليك.

و يمكن للسوريين الذين نشأوا على التعليم القومي العربي، و هذا يعني معظم السوريين، أنهم قد يفاجئون باكتشافهم أن أعضاء من الأقلية التي تتحدث العربية اليوم في الاسكندرون يعتبرون أنفسهم بشكل أساسي "أتراكا" على الرغم من أنهم من أصل عربي و يشعرون بانجذاب أكثر لتركيا و أوروبا أكثر من انجذابهم لسورية و العالم العربي. إن الولاء للدولة التركية حل على ما يبدو محل الولاء العرقي، و من الممكن اليوم لتركي من أصل عربي أن يكون فخوراً بكونه "تركياً" (يعني هذا اتجاهه نحو الدولة التركية) مثل الأتراك الذين ليس لهم أصل محدد. و هذا كله ناتج عن التعليم الوطني التركي.

تتجه الروابط بين العرب من سورية و تركيا، في الأماكن التي ما تزال تتواجد فيها، إلى أن تصبح أضعف كنتيجة للحدود الحالية بين الدول.

و في جنوب تركيا، فان بلدة حران ببيوتها التقليدية المصنوعة من القرميد الطيني و التي بشكل خلية النحل و التي تسكنها نفس عائلات المزارعين العرب كما في سورية، قد أصبحت الآن جاذباً سياحياً تركيا. و في ماردين لم يعد الأطفال في المدارس يتكلمون لغة آبائهم العربية و إنما لغة التعليم في مدارسهم، و التي هي اللغة التركية، و هذا تطور حديث طبيعي.

تغطي الجمهورية العربية السورية أجزاءً من بلاد الشام و بلاد الرافدين  
السيدات و السادة

عندما وصلت إلى الاسكندرون كنت لم أغانر بعد الجمهورية التركية، على الأقل تبعاً للأختام على جواز سفري، و لكن بشكل ما كنت قد دخلت "سورية". و ليس الجمهورية العربية السورية، على الرغم من أنني أدرك تماماً أنه في الماضي تم استخدام سورية تقليدياً لاعتبار مقاطعة الاسكندرون على أنه اللواء المغتصب الذي تم انتزاعه منها كنتيجة لسياسات الاستعمار الفرنسي. و لكنني دخلت إلى تلك الكينونة الجغرافية الأكبر و التي تدعى غالباً بلاد الشام أو "سورية الكبرى"، و التي تشمل منطقة أكبر بكثير من الجمهورية العربية السورية اليوم. لكن ما هي بالضبط منطقة بلاد الشام؟ انه لمن الملائم تعريفها على أنها "إقليم سورية و الأردن و لبنان و فلسطين الذي من الممكن رؤيته على أنه كان جغرافياً و ثقافياً و تاريخياً كينونة موحدة تم فصلها من قبل القوى الاستعمارية". هذه هي الطريقة التي تم بها وصفها في مقدمة لمؤتمر بلاد الشام في الحقبة العثمانية، و التي تم عقده في دمشق عام 2005.

لكن هل هذا صحيح؟ فأنا شخصياً أعتقد أن بلاد الشام هي إقليم عربي قابل للتعريف بشكل واضح من خلال خصائص جغرافية و اجتماعية و لغوية محددة. يتم في مدن سورية و لبنان و الأردن و فلسطين تحدث أنواع معينة مما يدعى "العربية السورية" ذو خصائص مشتركة لا يمكن أن توجد بشكل عام خارج بلاد الشام. و لكن في رأيي أن بعض المناطق من الشمال الشرقي لسورية ليست في الحقيقة جزءاً من بلاد الشام لأنها تشكل جزءاً طبيعياً من بلاد الرافدين أو الأرض بين نهري دجلة و الفرات، و التي هي بشكل مساو إقليم عربي قابل للتعريف من خلال خصائصه المحددة. و بالنظر إلى الجانب السوري فيمكن وضع الخط القاسم بين بلاد الشام و بلاد الرافدين، كلا الجزأين المدعويين بالهلال الخصيب، في النهاية الشرقية لبادية الشام و في مكان ما عند نهر الفرات. و هذا يعني أن الجمهورية العربية السورية الحالية تغطي جزءاً الذي من جهة أصغر من بلاد الشام—لأنه لا يشمل فلسطين و لبنان و الأردن و الأجزاء التي تقع الآن في الجمهورية التركية— و لكنه يغطي من جهة أخرى مناطق تقع خارج بلاد الشام و بشكل جدير بالذكر بعض أجزاء الشمال الشرقي من الجمهورية العربية السورية التي تبدأ في مكان ما عند نهر الفرات و التي هي منطقة الجزيرة بمعنى آخر. و الرجاء أن لا تخطنوا و أن لا تعتبروا طريقة التفكير هذه كمثل إضافي للجهود و المؤامرات الغربية لتقسيم بلاد الشام لأجزاء أكثر مما هي عليه الآن. إنها مجرد ملاحظات شخصية ناشئة من رحلاتي في بداية السبعينات بالسيارة من حلب إلى الموصل. عند النزول إلى وادي الفرات إلى جهة الشرق بعد المرور بالرفقة راودني و بشكل مفاجئ شعور أنني دخلت منطقة تذكرني جداً بالعراق. و كما، عند دخولي إلى الاسكندرون، كنت قد دخلت للتو بلاد الشام من الغرب بينما كنت عندها لا أزال في الجمهورية التركية، دخلت لبلاد الرافدين عند نزولي إلى وادي الفرات إلى الشرق قبل دخولي إلى جمهورية العراق. لا أعرف إن كانت السلطات الاستعمارية البريطانية و الفرنسية قد وضعت الحدود بين العراق و سورية عن قصد بشكل جعل ليس فقط بلاد الشام تقسم إلى أقسام مختلفة تدعى الأقسام الاصطناعية و لكن أيضاً قسمت أجزاء من بلاد الرافدين بين سورية و العراق عن قصد، أو أن هناك عوامل أخرى قد لعبت دوراً. تبدو فكرة تقسيم بلاد الشام و بلاد الرافدين بهذه الطريقة للوهلة الأولى و كأنه من الصعب أن تتخيلها، لكنني أفضل أن أتترك جواب هذا السؤال لعالمي تاريخ آخرين.

و يجب أن أعترف انه و قبل تحضير خطاب اليوم لم يخطر في بالي أبداً أن الجزيرة من الممكن أن لا تكون جزءاً من بلاد الشام. أعتقد أنه بسبب أننا نشأنا كلنا مع الخرائط السياسية لأوقاتنا. و كنتيجة لذلك يعتبر المرء تلقائياً أن منطقة الجمهورية العربية السورية كلها جزء من بلاد الشام، على الرغم من أن هذا ليس منطقياً اعتماداً على النقاط التي طرحتها للتو.

لكن هل هذا بهم حقاً؟ لا أعتقد ذلك. و إن هذا أيضاً لا يصنع أي فرق فيما يتعلق بشرعية الدول كما توجد في يومنا الحالي.

يجب الاستنتاج أن سورية في يومنا الحاضر هي، من النظرة التاريخية، بالفعل تكوين اصطناعي، تكوين من قبل الاستعمار الغربي كما كانت أشكالها المختلفة في الماضي تكوينات بفعل مجموعات قوى أخرى سواء يمكن وصفها "بالاستعمارية" أو لا. و يمكن بشكل مشابه اعتبار بعض الكينونات السابقة بما فيها حلب و دمشق على أنها تكوينات اصطناعية، و ذلك اعتماداً بكل بساطة على تكوينها الجغرافي و على المجموعة أو السلالة الحاكمة التي استلمت السلطة في ذلك الوقت و أين.

أنا أوافق بشكل تام على وصف بلاد الشام أنها تشكل "كينونة جغرافية و ثقافية". و أوافق أيضاً على مفهوم القوى الاستعمارية الغربية التي قسمتها عن قصد إلى أقسام مختلفة و لأجل أسباب مختلفة. لكن ما إذا كانت بلاد الشام "كينونة موحدة تاريخياً" قبلاً، فيبدو الأمر بالنسبة لي طريقة مثالية للنظر للأمور التي لا تتطابق مع الواقع التاريخي. إنها تبدو طريقة للقول أن "لو أن القوى الاستعمارية لم تقسم منطقة الهلال الخصيب كما فعلت، لكانت هذه المنطقة الآن وحدة موحدة بقدر ما هي بلاد الشام معنية بذلك".

و يجب أن أؤكد أن مثل هذه الملاحظات الشخصية لا تعني بأية طريقة أنني لا أرغب أن تتوحد بلاد الشام أو أن تصبح كينونة واحدة كما كان موقف القوى الاستعمارية على ما يبدو في الماضي. بل على العكس فكما أن الوحدة السياسية و الاقتصادية لدول الاتحاد الأوروبي قد جلبت لها الازدهار و الاستقرار الاقتصادي، فإنه سيكون كثيراً إن تم رغبة المثالية إذا تم تحقيق شيء مماثل للبلاد العربية في الشرق الأوسط.

لكن هل هو شرط للبلاد أو الأقاليم العربية أن تكون قد توحدت في التاريخ الماضي لكي تكون قادرة على أن تتوحد أو تندمج في المستقبل؟ لا أعتقد ذلك. و بالإضافة إلى أن هذا سيفرض قيوداً غير ضرورية على شكل و إمكانيات التعاون.

إن الاستقرار و الازدهار في العالم العربي سيكون مفيداً لبقية العالم. لكن أن نأخذ الاتحاد الأوروبي على أنه نقطة انطلاق يفرض أيضاً و بشكل مسبق أن البلاد العربية التي ترغب بالانضمام سيطلب منها أن يكون لديها أنظمة سياسية تشابه بعضها الآخر بشكل كاف لكي تستطيع التعاون بشكل مكثف أكثر، و أن الناس سيقرون ذلك بشكل نابع من إرادتهم الحرة. يمكن للجمهوريات و الممالك أن تتماشى مع بعضها كما تظهر الحالة الأوروبية.

فقط تخيل لو أن لبلاد الشام نظاماً مثل الموجود في الاتحاد الأوروبي. هذا يعني أنه يمكن للمواطنين أن يسافروا بحرية ضمن هذه المنطقة العظيمة و أن يستخدموا نفس العملة و أن يكون لديهم حرية الدخول إلى كل أسواقها الداخلية و بدون أن يظهروا جوازات سفرهم عند الحدود الداخلية. يمكن للمرء تخيل الأقاليم العربية الأخرى بهذه الطريقة أيضاً.

يمكن للمرء الاستنتاج أن الدول بشكل عام تقبل الحدود الاستعمارية عندما يناسبها ذلك جيداً، و لكنها تميل إلى معارضتها عندما يكون هناك إمكانية للحصول على منطقة أكبر بغض النظر إن كان هذا مبنياً على حقائق التاريخ أم لا، في حال وجود شيء كـ "المنطق التاريخي".

و بعد هذا الوجود الطويل تبدو الجمهورية العربية السورية و كأنها فقدت معظم إن لم يكن كل الاصطناعية التي تم من الممكن إدراكها في مراحل سابقة.

### "الاستعمارية الموحدة" و "الاستعمارية المسببة للشقاق": خيار بين "فرق لتحكم" أو "وحد لتحكم"؟

السيدات و السادة

جعلتني رحلاتي المتكررة في بلاد الشام مدركاً تماماً للتشابه بين سكانها و لكن أيضاً للحدود التي تقسم بينهم. تلام بشكل عام كل من بريطانيا و فرنسا، بالإضافة إلى قوى استعمارية سابقة أخرى، على التقسيم الحالي للعالم العربي إلى دول منفصلة.

لكن لا تنهم كل القوى الاستعمارية بأنها أرادت أن تقسم و تفصل مستعمراتها. و يعتبر الهولنديون استثناء فيما يتعلق بهذا الموضوع.

كان لي في منتصف التسعينيات نقاش عام مع سياسي سوري قال أن الاستعمار الهولندي في اندونيسيا أو جزر " الهند الهولندية " كما كانت تدعى في ذلك الوقت، كانت نوعاً إيجابياً من "الاستعمارية الموحدة"، و التي تتعارض مع نوع "الاستعمارية المسببة للشقاق" التي تم على ما يبدو تطبيقها من قبل القوى الاستعمارية في العالم العربي.

لاحظ السياسي السوري أن اندونيسيا هي عبارة عن أرخبيل ضخم مؤلف من آلاف الجزر المأهولة من قبل سكان متنوعين بشكل كبير و الذين يتكلمون العديد من اللغات و التي معظمها من المسلمين و لكن هناك فيها أيضاً أنصار ديانات أخرى. عندما حصلت اندونيسيا على استقلالها، قال منهباً، لم يتم تقسيمها إلى عدد كبير من الدول كما حدث في العالم العربي لكنها تحولت إلى دولة موحدة ذات أهمية كبيرة. هل كان ذلك بسبب ثورة الاندونيسيين ضد التقسيم، سأل متكلفاً؟ أم هل كان للهولنديين نوع من الاستعمارية الموحدة التي لم يحظ العرب بـ "الحظ"، كما سماه، للتعرف عليها؟ لأن كلاً من القوى الاستعمارية المسيطرة على العالم العربي من الممكن بعد كل هذا أن تكون قد تركت خلفها حصتها الاستعمارية الخاصة ككينونة موحدة بدلاً من تحويلها إلى دول منفصلة. (3)

و في الحقيقة فإن الهولنديين قد طبقوا بالفعل نوعاً من الاستعمارية التي قادت في النهاية إلى توحيد تلك المنطقة الكبيرة التي تشكل الآن جمهورية اندونيسيا. و أحدثت السيطرة معاً على منطقة استعمارية كبيرة من قبل الهولنديين أيضاً قمعاً للحركات الانفصالية التي، و كما في حالة أتشه، أدت إلى حروب دموية لحوالي 30 عاماً. تبدو سخريّة التاريخ بأنه من دون هذه الحرب لما كان أتشه على الأغلب الآن جزءاً من اندونيسيا الحديثة.

و قد حاولت هولندا، في المرحلة الأخيرة من الفترة الاستعمارية، أن تدخل نظاماً فدرالياً لينا أكثر في محاولة منها للاحتفاظ بقليل من السيطرة في هذا الأرخبيل الضخم. لكن هذه السياسة قد فشلت بشكل واضح، لأنه تبين أن فكرة جمهورية اندونيسيا موحدة و مستقلة تماماً و تغطي كامل الأرخبيل، أي مستقلة تماماً عن الهولنديين قد لاقت دعماً

بشكل واسع من غالبية الاندونيسيين في أرجاء البلاد. و كنتيجة لذلك أصبحت الحدود الاستعمارية السابقة الحدود الرسمية النهائية لجمهورية اندونيسيا. لا بوصة أكثر (كنتيجة أن شرق تيمور لم يتم ضمه لأنه كان مستعمراً من قبل البرتغاليين و ليس الهولنديين) و لا بوصة أقل (كنتيجة أن بابوا تم دمجها أخيراً عام الستينات). و تتطلب كل بوصة، عند التعامل مع الحدود الدولية، اهتماماً مقدساً لأن السيادة الوطنية على المحك. و قد يفقد فقدان أي بوصة من المنطقة لادعاءات و عدم استقرار سياسي و توترات في العلاقات الدولية أبعد و أحياناً الى حروب. و كنتيجة لذلك يتم احترام الحدود الاستعمارية السابقة بالرغم من أن وجودها غير مستحب أبداً.

### هل تموت العروبة و يتم استبدالها بالأصولية الإسلامية؟

السيدات و السادة

إن التفكير في سورية يجعلني أفكر بشكل تلقائي بقضية القومية العربية. فحسب رأيي إن قوة العروبة يتم انقراض قدرها هذه الايام.

فعبارة الرئيس عبد الناصر أن "دمشق قلب العروبة النابض" قيلت منذ زمن بعيد لدرجة أنها قد فقدت ربما قيمتها أو معناها السابقين، بالإضافة إلى أن الظروف السياسية الحالية مختلفة بشكل تام. و يبدو في الوقت الحالي أن هناك تيار قوي من الأصولية في أجزاء مختلفة من العالم في كل من الإسلام و المسيحية و اليهودية. و لكن هذا لا يعني أن "العروبة أو القومية العربية تموت أو احتضرت"، كما هو الموضة الشائعة في بعض الدوائر، خصوصاً من قبل هؤلاء الذين يجاهدون لشرح تقريباً كل شيء في نطاق الأصولية الإسلامية كما لو أن عندهم نوع من "الترسيخ" (يعني fixation او حتى obsession) في هذا الموضوع. و بالتأكيد فإن العديد من الأشكال العربية لوطنية الدولة أصبحت الآن أكثر قبولاً في العالم العربي و لم تعد يستخف بها من قبل أنواع القومية العربية، كما تتضح الحالة في بعض الفترات الماضية في أقاليم عربية مختلفة. و لكن مرة أخرى هذا لا يعني أن العروبة قد اختفت كقوة سياسية أو أصبحت ضعيفة جداً بحيث تبرز القول أن القومية العربية تموت أو احتضرت. إنها تعتمد بشكل كبير على القضايا السياسية التي على المحك و في أي سياق هي. و في رأيي أن العروبة قد تطورت بشكل محض إلى متنوعات جديدة، و كنتيجة فإن التعاون العربي الداخلي لديه الإمكانية للتطور بقوة أكبر عما كان في الماضي. لا يرى الاختلاف أو التعددية بعد الآن على أنه شيء يعيق الوحدة أو التعاون العربي. يستطيع المرء أن يكون الآن فخوراً بكونه عراقياً أو سورياً بدون اتهامه بنوع من الإقليمية. فعلى ما يبدو قد ولى عهد التجانس المفروض أو المصطنع و الذي هو شاذ في المجتمعات الكبرى.

### يمكن تصنيف المستعربين الهولنديين إلى "الشامي" و "المصري"

السيدات و السادة

انه لمن الطبيعي تصنيف المستعربين الهولنديين بالإضافة إلى المستعربين من جنسيات أخرى حسب اهتماماتهم الأكاديمية الشخصية و أوقافهم و اختياراتهم الإقليمية. يقوم أولئك الذين درسوا على التوالي في القاهرة أو دمشق بتصنيف بعضهم البعض كـ "مصري" أو "شامي". إن هذا التصنيف شارح لذاته. يهتم عادةً المستعربون المصنفون بـ "شامي" بأي شيء متعلق بسورية أو بلاد الشام في حين يميل الآخرون إلى التركيز أكثر على المواضيع المتعلقة بشكل مباشر أو غير مباشر بمصر أو وادي النيل. و لكن يجدر بالذكر أنه هناك أيضاً مستعربون هولنديون متنوعون لا تسمح لهم اهتماماتهم المتعددة الوجوه بأن يكونوا في أحد هذين التصنيفين. إن معظم هذه الظاهرة هي نتيجة الإمكانات للطلاب لكي يدرسوا في العالم العربي أو الانتقال إلى هذه الإمكانات. من الواضح أن الاتصالات الأولية للطلاب مع العالم العربي تلعب عادة دوراً كبيراً في تطورهم الأكاديمي أو اهتماماتهم الأولية. و هذا واحد من الأسباب التي تجعل وجود معاهد هولندية أكاديمية في المنطقة أمراً مهماً. يعتبر المعهد الهولندي للآثار و الدراسات العربية في القاهرة (يدعى الآن المعهد الهولندي للفلمنكي)، و المؤسس عام 1971، أقدم معهد هولندي أكاديمي في المنطقة و ألهم العديد من الطلاب الهولنديين للغة العربية و الشرق الأوسط لبدء دراستهم في مصر. و كنتيجة غير مباشرة لذلك قام العديد من الطلاب بتركيز انتباههم بشكل أقل على بلدان أخرى كسورية مثلاً. أعرف بروفسوراً باللغة العربية في جامعة هولندية كان يدرس مصر منذ أكثر من عشرين عاماً قبل أن يزور أخيراً سورية. بدا الأمر بالنسبة لي غير اعتيادي أما بالنسبة له فلم يوجد سبب يدفعه لزيارة سورية في مرحلة مبكرة. و لذلك فانه من المهم جداً أنه في عام 2001 تم تأسيس المعهد الهولندي للدراسات الأكاديمية في دمشق (NIASD)، موفراً فرصة ممتازة للطلاب و الأكاديميين للتعرف أكثر على بلاد الشام بما في ذلك من تضمينات لفهم أكبر في

هولندا لسورية و البلاد المجاورة لها. كما أنها يمكن أن تساهم في تقوية العلاقات الثنائية في العديد من المجالات بين الشعبين السوري و الهولندي. وعلى أية حال فان العلاقات الشخصية هي التي تلعب دوراً محورياً في المساعدة لتحصيل فهم متبادل أفضل. و أيضاً من ذلك المنظور فان التعاون السوري-الهولندي يستحق بشكل كبير ترويجاً أكثر(4).

السيدات و السادة

يعود تاريخ الطريق الذي جمع السوريين و الهولنديين إلى أكثر من 400 عام. إن الطريق غني في إمكانياته، و يستطيع السوريون و الهولنديون التعلم من خبرات بعضهم البعض و يستطيعون اغناء بعضهم من خلال علاقات و اتصالات مكثفة أكثر في مجالات متنوعة.

أنا مقتنع بأن هذا الأسبوع من التقابلات الهولندية-السورية يمكن أن يكون مساهمة جادة لتقدم هذه العلاقة. لنعمل معاً من أجل مستقبل مشترك لمنفعة كلا بلدينا و إقليمينا.

و شكراً

**الهوامش:**

- 1- الدكتور نيقولاوس فان دام ( [www.mfa.nl/jak](http://www.mfa.nl/jak) ) ، حالياً سفير هولندا في اندونيسيا و سفير سابق في العراق و مصر و تركيا و ألمانيا. لديه اهتمام أكاديمي خاص بسورية. أمضى معظم مهنته الدبلوماسية و الأكاديمية في العالم العربي بما في ذلك أيضاً ليبيا و لبنان و الأردن و المناطق الفلسطينية المحتلة. إن الآراء المذكورة هنا تعود له.
- 2- حسين المدرس و اوليفيه سالمون، حلب، 2007
- .Les relations entre les Pays-Bas et la Syrie ottomane au XVIIIe siècle  
(Les 400 ans du Consulat des Pays-Bas à Alep1607-2007
- 3-عبد الله الأحمد، "الى السفير نيكولاوس فان دام"، *السفير*، 8 حزيران 1995
- 4- تم عام 2006 تأسيس المعهد الهولندي الأكاديمي: المعهد الهولندي في المغرب (NIMAR) في الرباط.